## ٢. المديح:

كانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما كان مدحهم شكراً للممدوح على يد أسداها لا يستطيع الشاعر أداء حقها إلا بشعره،[١] وبين الأصل الذي نشأ عليه المديح في الشعر قبل الإسلام، وما نحن فيه. عصر الطوائف والمرابطين. حقبة زمنية طويلة، نلاحظ فيها ازدهار الموضوع ازدهاراً كبيراً، حيث كانت سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف، فكل كان يسعى في استقدام الشعراء، وانتقاء المتميزين فيهم، حتى بلغ الأمر ببعض الشعراء ألا يمدح أحداً منهم إلا بمائة دينار... وعلى هذا النحو تنافس الملوك في إكرام الشعراء.

يقترن المديح بموضوعات الشعر الأخرى، فالغزل أول ما يستفتح به الشاعر قصيدته في المدح، وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديماً، لكنه قد يمتزج به على نحو ما تقدم بنا مع ابن اللبانة، والقزاز حين قسما البيت صدره غزلاً وعجزه مدحاً، كذلك يمتزج بوصف الطبيعة إذ كانت مجالسهم في الرياض الغن والحدائق الفيح.

إن تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ما كانت عليه، في معانيها وأسلوبها، فدارت حول الخصال الأربع الرئيسة، العقل والعفة والعدل والشجاعة،[٢] إلا أن عدداً من المدائح امتزجت فيه طريقة القدماء بمذهب المحدثين، وانهما ظلا موصولين لا ينفصلان.[٣]

ونحن إزاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل: أكان هذا الغرض تكسبياً محضاً، أم أنه اختلط بإعجاب الشاعر ذاته بشخص الممدوح؟ الحق أنه من التجني رمي المدح بجملته بهذا الوصف القاسي، فنجرد الشاعر من ذوويته، ونظرته الخاصة للناس، "فالمدح فن أصيل من فنون الشعر لا يعيبه أن معظم الشعراء خرجوا به عن نهجه السوي إلى التكسب والارتزاق"،[٤] فإذا صدق هذا الوصف في بعضهم فهو ليس عاماً في جميعهم على نحو ما سنفصله فيما بعد.

ومن الشعراء الذين أخلصوا لممدوحيهم ابن اللبانة الداني حيث وصفه ابن بسام بقوله: "كان مائلاً لبني عباد بطبعه، فوفد على المعتمد بعد نفيه وفادة وفاء، لا وفادة استجداء، وانقطع إليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد".[٥]

وكان ملوك الطوائف إزاء كثرة الشعراء بحاجة لتمحيصهم وابتلائهم، وانتقاء شاعرهم من متشاعرهم، فممن قصد دولة المعتمد بن عباد، في إشبيلية، ابن حمديس وأبو العرب الصقليان، وكان قد أرسل لأبي العرب خمسمائة دينار للتجهيز بها ليتوجه

---

١ العمدة، ١/٨٠.
٢ نقد الشعر، ص ١٩.
٣ ابن بسام وكتابه الذخيرة، ص ١٢٩.
٤ ابن زيدون، علي عبد العظيم، ٣٧٩.
٥ الذخيرة، ٢/١/٦١ . ٦٢.

إليه، وأرسل مثلها لأبي الحسن الحصري القيرواني الكفيف، فاعتذر الأخير بخوفه من عبور البحر.[1]

ولنستمع إلى ابن حمديس الصقلي يقص علينا قصة قدومه إلى الأندلس وامتحان المعتمد إياه: "أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبأ بي حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممتُ بالنكوس على عقبي، فأني لكذلك ليلةً من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لي: أجب السلطان، فركبت من فوري، ودخلت عليه فأجلسني على مرتبةٍ (فنك) وقال لي: افتح الطاق الذي يليك، ففتحته فإذا بكوة زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه وواقده يفتحها تارةً ويسدها تارة أخرى ثم دام سدّ أحدها وفتح الأخرى فحين تأملتها قال أجز:

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقلت:

كما رنا في الدُّجنة الأسدُ

فقال:

يفتحُ عينيه ثم يطبقُهما

فقلت:

فعل امرئٍ في جفونه رمد

فقال:

فابتزَّه الدَّهرُ نورَ واحدةٍ

فقلت:

وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية، وألزمني خدمته".[2]

ويبدو أن ديوان الشعراء لم يكن موجوداً في جميع ممالك الطوائف، بل نجده في مملكة بني عباد التي اصطنعت أجواء للشعراء تدعوهم إليها اصطناعاً، وهؤلاء الشعراء الذين تدخل أسماؤهم في الديوان هم "شعراء منتمون" وهو نعت إحسان عباس،[3] تجري عليهم الأعطيات السنوية أو الشهرية.. فضلاً عن الجوائز الخاصة بقصائد تلقى في المناسبات.

ويذكر إحسان عباس ضربين آخرين من الشعراء فضلاً عن الأول:

١. الشعراء الذين بلغوا أعلى مناصب الدولة، ومنهم ابن زيدون، وابن عمار، وابن عبدون، وكان يطلق على بعضهم لقب "ذو الوزارتين"،[4] إشارة إلى رياستي الشعر

---

١ أبو الحسن الحصري القيرواني، ٣٠، محمد المرزوقي، والجيلاني بن يحيى، ط المنار، تونس.

٢ بدائع البدائة، ١٧٩. نفح الطيب، ٦١٦/٣.

٣ تاريخ الأدب الأندلسي، ٨٢/٢.

٤ ينظر معنى الوزارة في التمهيد، انتشار اللغة العربية وخصائصها.

والنثر، ترجم لعشرة منهم ابن خاقان كما أشرنا سالفاً.

٢. الشعراء الجوالون، وهم الذين لا يلتزمون أميراً واحداً بل يقصدون أكثر من واحد، وقد يطيب لهم التزام أمير معين، وهذه المرحلة غالباً ما تكون مرحلة سابقة أولية ثم يتحول الشاعر بعدها إلى الانتماء والاستقرار في كنف أحدهم كما حصل لابن عمار ولابن اللبانة مثلاً.

ومن الشعراء المدّاح من غير الطبقات الثلاث التي تقدمت آنفاً: شعراء جوالون دون أن يتخذوا الشعر وسيلة للتكسب، ومنهم ابن عيطون اللخمي الطليطلي، الذي قال الشعر متحبباً لا متكسباً، ووصف بأنه "جال على ملوك الطوائف".[١] ولا بد أن نشير إلى طبقة من الشعراء ترفعت عن التجوال، وانحازت عن المدح إلى فنون الشعر الأخرى خضوعاً لمذهب ذاتي أو فلسفي أو ديني أمثال أبي إسحاق الألبيري، وابن العسال، وابن خفاجة الأندلسي.

وكان موقف النقد الأندلسي يعضد هؤلاء، حيث يتجلى لدى عدد من النقاد أمثال ابن بسام وابن حزم فقال الأول: "إن الشعر لم أرضه مركباً، ولا اتخذته مكسباً، ولا ألفته مثوى ولا متقلبا.. رغبة بعز نفسي عن ذله.."[٢] كما أنكروا على الشعراء الغلو فيه.

ويصور لنا ابن وهبون المرسي المذهب السائد في مديح الشعراء الأندلسيين، من أن الإبداع في المديح مقرون بالعطاء، فحين أعجب المعتمد ببيت المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني:

إذا ظفرت منك العيون بنظرة ... أثاب بها معيي المطي ورازِمهُ

قال ابن وهبون مرتجلاً:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما ... تجيد العطايا واللّها تفتح اللها[٣]

وحين ينشد بعض الحاضرين بيتين لابن وهبون في مجلس المعتمد بن عباد هما:[٤]

قلّ الوفاء فما تلقاه من أحد ... ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربةٌ ... أو مثل ما حدّثوا عن ألف مثقال

يرسل له ألف مثقال، فيأتيه الشاعر شاكراً، ليقول له المعتمد: "الآن حدّث بها لا عنها.." وفي رواية أخرى أنه قال: "قد أمرنا لك بألف دينار، وبألف دينار أخرى تنفقها".[٥]

ومن نماذج المديح قول ابن اللبانة يمدح المعتمد بن عباد وأبناءه الأربعة في قصيدة:[٦]

---

١ المغرب، ١٦/٢.
٢ الذخيرة، ١٨/١/١.
٣ نفح الطيب، (في رسالة فضائل الأندلس للشقندي)، ١٩٤/٣.
٤ المعجب، ١٥٩.
٥ النفح، ٢٣٥/٣.
٦ ديوانه بتحقيقنا، ق ١٩.

تحللت حتى غابة الأسد الوردِ ... وأنزلت حتى ساكن الأبلق الفردِ
وجرَّدت دون الدين سيفك فانثنى ... من النَّصر في حُلي من الدّم في غمدِ
وحسبُ الليالي أنها في زمانه ... بمنزلة الخيلانِ في صفحة الخدِ
توقَّد عن نارٍ من الحرب والقرى ... وقام على طودين للحلم والمجدِ
وجاءَت به الأيامُ تاجَر سؤددٍ ... يبيعُ نفيساتِ المواهبِ بالحمدِ
يغيثك في محل يُعينك في رِدى ... يَروعك في روع يروقك في بُردِ
جمالٌ، وإجمالٌ، وسَبقٌ، وصولةٌ ... كشمسِ الضحى كالمزن كالبرق كالرعدِ

فمعاني المدح لا تخرج عن المعاني التي كان يمدح بها شعراء المشرق وهي صفات كثيراً ما تكون غير وصف الممدوح، وإذا أردنا تأمل منهج الشاعر في القصيدة نجده يلجأ إلى التقسيم ويبدع به، فهو يتوقد عن نارين من الحرب والقرى، ويقوم على طودين للحلم والمجد، وهو مغيث في المحل، معين في الردى، رائع في الروع، ورائق في البرد، وهو في جماله وإجماله وسبقه وصولته كالشمس والمزن والبرق والرعد.

وهو في وصفه لخلال (صفات) المعتمد يرفعه إلى مصاف العظماء... إلا أنه لا يسلم من نقد ابن بسام في الذخيرة بعد أن يورد أبياتاً منها:

في نصرة الدِّين لا أعدمتَ نُصرته ... تلقى النصارى بما تلقى فتنخَدعُ
تنيلُها نِعماً في طيَّها نِقَمٌ ... سيستضرُّ بها من كان ينتفعُ

ويقول فيه ابن بسام: "وهذا مدح غرورٍ وشاهد زور وملق معتفٍ سائلٍ، وخديعة طالب نائل وهيهات!! بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم".[1]

ومن القصائد الذائعة لابن عمار الأندلسي قوله يمدح المعتضد بن عباد الإشبيلي من قصيدة يهنئه فيها بعيد النحر، وفيها تأكيد على معنى العطاء والنوال وطلبهما منه، وهي قصيدة أثنى عليها النقاد، حتى صارت أشرد من مثل، وأجذب للأسماع من لقاء حبيب وصل،[2] وقال المراكشي في بيت من أبياتها أنه لم يسمع لمتقدم ولا متأخر مثله،[3] وإليك بعض أبياتها:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره ... لما استردّ الليل منا العنبرا
وعلمت حقاً أن روضي مخصِبٌ ... لما سألت به الغمام الممطرا
يا سائلي ما حمصُ إلا خاتمٌ ... أبصرتُ إسماعيل فيه خنصرا
من لا توازنه الجبال إذا احتبى ... من لا تسابقه الرياح إذا جرى
لا شيء أقرأُ من شفار حُسامه ... إن كنت شبهت الكتائب أسطرا

---

١ الذخيرة، ٢/١/٢٤٩، الفاقرة: الداهية العظيمة تقصم فقار الظهر.
٢ النفح، ٣/١٩٤.
٣ المعجب، ١٧٦. وينظر الشعر الأندلسي، ص ٣٨٤، مقالة عبد الله كنون في مجلة المجمع العربي السوري، ١٩٥٦/٣/٣١ وهذه الصيغة النقدية أصدرها كذلك حين أعجب برائية ابن اللبانة.

وجهلت معنى الجود حتى زرته فقرأته في راحتيه مفسّرا

وهي طويلة في خمسة وأربعين بيتاً.[1]

ولا بد أن نشير إلى أن شعر المديح أصابه ما أصاب موضوعات الشعر الأخرى، بل كان هو في مقدمتها، من ضمور وضعف عما كان عليه من قبل وذلك بمجيء المرابطين.. لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد والحرب.. ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم وملكهم.

**٣. الرثاء:**

من أشهر موضوعات الشعر نظماً، وأصدق ما يكون الشاعر فيه، فقد سئل البحتري عن سبب تفوق رثائه على مديحه فقال: "من تمام الوفاء أن يعلو على المدح الرثاء".[2]

لم يخرج شعراء الأندلس في مراثيهم عن "طريقة العرب" التي تدور في الغالب في أفلاك ثلاثة هي: التأبين، والندب، والعزاء.

والمراد **بالتأبين**- في أصله. الثناء على الشخص حياً أو ميتاً، ثم اقتصر على الموتى فقط وفيه إشادة بالميت ومناقبه، لأنهم يبكون فيه النموذج في المروءة والرجولة والكرم والشجاعة والسماحة والشرف الرفيع، وكل الخلال الحسنة.

وأما **الندب** فهو إظهار التوجع والتفجع، والنواح والبكاء، على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج، وسكب الدموع.

وأما **العزاء** فالمراد به الصبر على كارثة الموت والمواساة بفقد الميت العزيز، طالما كان الموت سنة يخضع لها الكون، ولا محيص عنه، وقد جاء الإسلام فعمق هذا المفهوم ورسخ جذوره وجاءت الإشارة إليه في الآية الكريمة: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾.[3]

ويرى ابن رشيق أن لا فرق بين المدح والرثاء سوى أن الأول في حي والثاني في ميت وهو تقدير عام قد يصح في مفهوم التأبين، أما مفهوم الندب والعزاء فلا..

ويمكننا أن نشير إلى بعد رابع يضاف إلى ما تقدم... وذلك هو الحديث عن فلسفة الحياة والموت والبقاء والفناء، يعرض له الشعراء في قصائدهم، فتأخذ طابعاً متميزاً على نحو ما نجد في قصيدة المعري الدالية، الذائعة الصيت: "غير مجد...".

وأكثر ما يكون الرثاء في الأقارب، فقد رثى ابن حمديس أباه، وزوجته وجاريته، ورثى الحصري القيرواني ابنه عبد الغني المتوفى سنة ٤٧٥هـ في ديوان سماه اقتراح القريح في

---

١ محمد بن عمار الأندلسي، رقم ١، ص ١٨٩.

٢ الأغاني، ٤٢/٢١، ط دار الكتب المصرية.

٣ تنظر هذه المفاهيم في الرثاء، ص ١٢، شوقي ضيف، سلسلة فنون الأدب العربي، الفن الغنائي، العدد٢.